أثر عقيدة التوحيد في التنمية الاجتماعية

أ. د. سعد بن علي بن محمد الشهراني
جامعة أم القرى - السعودية

تاريخ الارسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2020/02/01	2020/04/02	2020/06/15

الملخص:

أن التوحيد هو أصل الأصول، ولأجله خلق الله الجن والإنس، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وهو أساس هذا الدين، والميثاق الذي أخذه الله على الناس أجمعين، وبدون التوحيد لا يقبل الله العمل. وهو القاعدة والأساس لقيام ونهضة هذه الأمة أفراداً ومجتمعات. وقد تجلى أن عقيدة التوحيد تجعل المجتمع متحابًا، وينطلق من عقيدة التوحيد الصحيحة الأصيلة، وما يندرج تحتها من مبادئ وقيم تضبط الفكر ورؤية الكون والحياة، في ضوء العبودية الخالصة لله عزّ وجلّ، وما ينجم عنها من آثار إيجابية تنعكس على سلوك الفرد وسلامة الأمة، إلى جانب نظم الإسلام الشرعية وأخلاقياته السامية التي عنت بالأخوة ووحدة الأمة غاية العناية.

كما إن عقيدة التوحيد تعرّف الإنسان بمدى ما يملك من طاقة وقوة، فتغرس فيه روح التوكل على الله سبحانه وتعالى، وهي روح تحفزه على اتخاذ كل الأسباب المادية المؤدية للنجاح، مع استحضار المعية الإلهية واستمداد العون من الله عزّ وجلّ. وإن نظرة الإسلام التي تعد العمل عبادة دافع قوي يدفع الإنسان إلى الإتقان في عمله والإخلاص فيه، ويعد مقصراً إذا تقاعس أو لم يؤد واجبه على الوجه المطلوب.

وأن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، ونحن مأمورون بأن نمارس عبودية الأخذ بالأسباب، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل.

وأنها تؤسس في الإنسان أركان الشخصية العاملة المتقنة؛ لأنها شخصية قوية بقوة التوحيد، أصلها ثابت وجذورها عميقة. وتثمر أعمالاً متقنة ولابد أن تتحلى هذه الشخصية الموحدة بصفات تؤهلها للعمل

والإتقان فيه ومنها: القوة، الأمانة، التوكل، الصبر النشاط والجلَد التدريب والتأهيل، حسن الصلة بالله الالتزام بالضوابط الشرعية، عدم الانهيار حين تخيب النتائج.

الكلمات المفتاحية: عقيدة - توحيد - توكل - عمل - تنمية اجتماعية.

Abstract:

That monotheism is the origin of the origins, and for him God created the jinn and mankind, sent the messengers, and sent the books, and it is the basis of this religion, and the covenant that God took upon all people, and without monotheism, God does not accept work. It is the basis and foundation for the rise and rise of this nation as individuals and societies. It has been demonstrated that the doctrine of monotheism makes society loving and starts from the authentic and authentic doctrine of monotheism, and the principles and values that fall under it that control thought and the vision of the universe and life, in light of the exclusive slavery of God Almighty, and the resulting positive effects that reflect on the behavior of the individual and the integrity of the nation, to Aside from the legal systems of Islam and its sublime ethics that meant brotherhood and the unity of the umma are very caring.

The doctrine of monotheism introduces a person to the extent of his energy and strength, and the spirit of trust in God Almighty is instilled in him, and it is a spirit that motivates him to take all the material causes leading to success, while evoking the divine awareness and drawing aid from God Almighty. The view of Islam, which regards work as a cult, is a powerful motivation that pushes man to perfection in his work and sincerity in it, and it is considered negligent if he fails or does not perform his duty as required.

And that abuse of reasons does not contradict trust, but trust is one of the greatest reasons for bringing benefits and paying harms, but it is the strongest of all reasons, and we are commanded to practice bondage to take reasons, as we are commanded to practice bondage to trust.

And it establishes in man the pillars of the perfect working personality, because it is a strong personality with the power of monotheism, whose origin is fixed and its roots are deep. It produces elaborate works and this unified character must possess qualities that qualify it for work and mastery in it, including: strength, honesty, trust, patience, activity and skin, training and qualification, good relationship with God, adherence to legal controls, and failure to collapse when results are disappointed.

المقدمة:

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي تفرد بأن يعبد ويحمد، وأشهد أن الله تعالى هو الإله المتوحد، شهادة عبده وابن عبده وابن أمَتِه، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته، وأن من ألَّه سواه فقد أشرك وندد، وأن محمداً عبده ورسوله الذي نهى عن الشرك والتنديد وشدد، فشرح الله به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلْفاً، فصلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تعبد ووحد.

أما بعد؛ فإن التوحيد أصل الأصول الذي هو حق الله جلّ وعلا على العبيد، والله جلّ جلاله إنما عَمَر السموات وخلقها، وعَمَر الأرض وخلقها، ليوحّد سبحانه، خلق السموات وجعل لها عُمّارا، وخلق الأرض وجعل فيها الجن والإنس مكلّفين، وذلك كله لتوحيده سبحانه وتعالى، قال جلّ وعلا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: 56 - 58].

كما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لأجل توحيده جلّ وعلا والقرآن كله توحيد، قال ابن القيم: « بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم »[1].

إن التوحيد هو القاعدة والأساس لقيام ونهضة هذه الأمة أفراداً ومجتمعات لأنه الصلة الحقيقية بين الإنسان وهذا الوجود، والرابطة التي تشد الوجود بما فيه ومن فيه إلى خالقه الواحد، ولا بد من القاعدة ليقوم البناء. والعمل الصالح هو هذا البناء، فهو منهار من أساسه ما لم يقم على قاعدته.

إن الفرد بلا توحيد ريشة في مهَبِّ الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، أينما الريح تميلها تمل، الفرد بلا توحيد إنسان لا قيمة له ولا جذور، إنسان قلق، متبرِّم، حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

الفرد - باختصار - بلا توحيد: حيوان شَرِه، وسبع فاتك مفترس، بقلب لا يفقه، بأذن لا تسمع، بعين لا تبصر، بهيمة؛ بل أضل.

والمجتمع كذلك، المجتمع بلا توحيد مجتمع غابة وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأفقه. المجتمع بلا توحيد مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية من الرخاء. المجتمع بلا توحيد مجتمع تافه مهين رخيص، غايات أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم وفروجهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: 12].

ومن هنا جاءت الحاجة الماسَّة الملحَّة للحديث عن عقيدة التوحيد وأثرها في الحياة بعمومها، وحياة الفرد والأسرة والمجتمع، حياة الأمة بأسرها، وبيان أثرها على أعمالنا وإبداعنا وتفوقنا وقوتنا.

« ومن تدبر أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض سببه توحيدُ الله وعبادتُه وطاعةُ رسوله، وكلَّ شرٍ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليطِ عدو وغيرِ ذلك سببه مخالفة الرسول ﷺ، والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموما وخصوصا، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[2].

ولاشك أن هناك علاقة طردية بين قوة المسلمين ونهضتهم وإتقانهم لأعمالهم وبين قوة توحيدهم ومن تتبع تاريخ الأمة الإسلامية غبر القرون رأى ذلك جلياً واضحاً، وتاريخ الدول الإسلامية خير شاهد على ذلك، فحين تكون الدولة الإسلامية موحدة لربها قوية في توحيدها بعيدة عن الشرك والخرافة تكون في أوج قوتها وعزتها، وحين ينخر فيها سوس الشرك تتهاوى وتسقط وتصبح مستعبدة ذليلة؛ لأنها ابتعدت عن عقيدة التوحيد الخالص.

إن أي تغيير شامل ناجح في الدنيا والآخرة لن يتحقق إلا من خلال العقيدة الصحيحة، وهذا هو منهج الإسلام وتجربة قدوتنا ﷺ، حيث أمره الله تعالى أن يثبت عقيدة التوحيد في نفوس الرعيل الأول، ويعمل لأجلها كل ما في وسعه، لأنه إذا تقررت العقيدة الصحيحة في النفوس يسهل تحقيق كل شيء، فالتغيير الجذري تظهر حقيقته بعد تحقيق عقيدة التوحيد الفعالة المؤثرة[3].

فلقد مكث ﷺ ثلاثة عشر عاماً من دعوته يرسخ مفهوم التوحيد ويجذره في نفوس المسلمين، لذا كان يحرص عليه الصلاة والسلام على أن يكون أول ما يلقن الطفل بعد ولادته

(التوحيد) شهادة أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ، فقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه « أذّن في أذن الحسن بن علي حين ولدتهما فاطمة بالصلاة »[(4)] .

وهذا التوحيد هو الذي يخلق خلقا جديدا، فيصوغه في قالب توحيدي يبرز صورة المؤمن الحق، الذي أطاع الله مخلصا له الدين، فأخضع سلوكه لمرضاة ربه مستسلما راضيا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65] . فلا اختيار له في تصرف إزاء أمر الله وأمر رسوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36] .

هذا التوحيد هو الذي يهذب السلوك، ويقيم قواعد العدل، ويحرس الحقوق، ويقضي على الفوضى والفساد والشر، ويدفع أهله للإتقان والإبداع، ويربط بين قلوب معتنقيه برباط المحبة والتراحم، وهو رباط لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الجوار أو المصالح المشتركة .

وما ساد التوحيد في أمة واستيقظت مشاعرها عليه إلا وساد فيها الأمن النفسي في حياة الفرد والأمن الجماعي في حياة المجتمع، وإذا فقدت أمة هذا التوحيد دب فيها الفساد وأهدرت القيم، وأصبح أمرها فوضى . هذا هو واقع الحياة اليوم، في كثير من المجتمعات .

كما إن أي منهج في عالم الأفكار سيبقى حبيس الصدور وأسير السطور مالم يترجم إلى نموذج عملي على أرض الواقع لتدبّ به الحياة وينسلخ عن عالم المثال والتنظير، فالتجربة العملية هي التي تشهد لهذا المنهج أو عليه وتكشف اللثام عن ثغراته وإضاءاته .

فمن مخادعة الذات أن نسير خلف فتات النظريات الغربية والتسليم المطلق بها - في أغلب الأحيان ينسق بعضها بعضاً - ونغفل تجربة النموذج الأمثل لبناء الشخصيات الإبداعية بالمنهجية النبوية المؤيدة بالوحي، فلابدّ من استدعاء المنهج النبوي التربوي واستبطانه وفهمه الدقيق لتوظيفه عملياً، لا لنعتز به ونحتمي به من هذا الوهن والإنهاك الحضاري، ولا لندلل على عظمة الإسلام وإبداعه بالشواهد العلمية فحسب، وإن كان لابد من ذلك؛ ولكن لنقدم

نموذجا راشداً للعالم أجمع (إبداع مسلمين) لتقود الأمة دورها المنوط بها في قلب العصر (المشروع الحضاري الإسلامي العالمي) المرتقب المؤسس على عقيدة التوحيد.

فقد شهد لعظمة رائد هذا المنهج النبوي وقائده ونموذجه الحي، القاصي والداني، والمسلم وغير المسلم، فقد اختار (مايكل هارت) اسم محمد ﷺ أعظم العظماء في تاريخ البشرية، وقد دلَّ هذا على دقة تحليل الباحث إلى درجة تثير التعجب والإعجاب، حيث وقع مقياسه للعظمة درجة التأثر الذي أحدثه في العالم[5].

إنه نقل قومه من التوحيد بالأصنام التي تفسد الأذواق والعقول وتسلب الذوق والجمال إلى التوحيد بالله، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات[6].

المبحث الأول: أثر عقيدة التوحيد في الحث على العمل والتنمية

تسخير الكون للإنسان: تحدد عقيدة التوحيد الغايةَ من خلق البشر، وهي عبادة الله سبحانه وتعالى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: 56].

والعبادة في الإسلام - كما سبق تقريره في الفصل الثالث - لا تقتصر على العبادات الشعائرية وحسب، بل تتعدى ذلك إلى كل عمل نافع يعمله الإنسان.

وهذه السعة في تقرير معنى العبادة وتعريفها تمنح الإنسان الموحِّد لله تكاملاً وتناسقاً في نظرته إلى الحياة وإلى الكون، فهو يعتقد أن الأرض مخلوقةٌ له، كما قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً** ﴾ [البقرة: 22]، وهو يعتقد أن ظواهر الطبيعة كلها إنما جُعلت لخدمته، فمنها الرياح والمطر، قال تعالى: ﴿ **وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ** ﴾ [الحجر: 22].

ومنها الظِّل وتحرّكه، وتجاويف الجبال، كما يقول سبحانه: ﴿ **وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا** ﴾ [النحل: 81].

ومنها المعادن، كما يقول عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: 25].

ومنها الأنعام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: 6]، ويقول سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 5 - 8].

ومنها: الأشجار المتنوعة بثمراتها المختلفة التي تناسب مختلف الأذواق، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: 60].

إلى غير ذلك من النِّعم التي صارت بها الأرض مكاناً صالحاً للحياة الآدمية، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 32 - 34].

التسخير وصلته بالعمل: أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان بالانتفاع بهذه الأرض وما فيها، فأمر بتمتيع العين بالنظر إلى الأشجار المثمرة وما أخرجته من ثمرات يانعة، قال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: 99]، وأمر سبحانه وتعالى بالأكل منها إذ قال: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: 141]، وقال في آية أوسع دلالة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 31، 32].

وأمر الله الإنسان بالسير في الأرض والنظر والتفكر فيما تحتويه من مخلوقات ذات خصائص مختلفة وأشكال متباينة، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

ومن الأمثلة على هذا التسخير وصلته بالتفكر ثم العمل: تسخير الرياح للنقل، وإن كانت في صورة معجزة من الله عزّ وجلّ لنبي الله سليمان عليه السلام، لكنها أوحت إلى العقل البشري، ليتخذ الأسباب في سبيل الوصول إلى تسخير الرياح، كما سخرها سليمان للنقل لا على سبيل المعجزة، ولكن باتخاذ أسباب العلم حتى صار الجوُّ حديثًا معبرًا للطيران في جميع أنحاء العالم، قال تعالى يصف معجزة سليمان في تسخير الرياح: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 81]، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: 12]، وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: 36].

وهكذا صوَّرَ القرآنُ الكريم الحرفَ الصناعية تصويرًا معجزًا؛ ليرسي الخلق الإسلامي خلق القرآن الكريم فيتحقق ما يأتي: التشريع والتقرير لهذه الصناعات، وأنها مشروعة من قبل الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15][7].

والانتفاع بهذا الكون ليس خاصاً بالمؤمن دون الكافر، وإنما هو نفع عام لكل بني البشر، المؤمن والكافر على حد سواء، ولذلك تجد خطاب القرآن الكريم في الآيات موجَّهاً إلى الناس عامة بلفظ (لكم)، (خَلَق لكم)، (سخَّر لكم)، وصيغة الخطاب هذه (لَكُمْ) تدل على أن التسخير مقصود، وهو إحدى وظائف الكون المطلوبة، والتي ينبغي أن يتنافس حول تحقيقها المتنافسون؛ لارتباط هذه الوظيفة بالوظيفتين السابقتين ارتباطاً وثيقاً، فهي بمثابة المقدِّمة لهما.

ذلك أن تسخير الكون للإنسان لن يتم إلا إذا استطاع الإنسان أن يعمل عقله في أشياء الكون من سمائه إلى أرضه، كاشفاً عن قوانينه، باحثاً في ظواهره بقصد الوصول إلى معرفة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر وجوداً وعدماً، وهذا كله مفتاح الطريق إلى معرفة آثار الله في كونه، ومعرفة آثار صفاته، وبالتالي فإن ذلك كله يقود العالم المتأمل إلى الإيمان بأن هذا الكون بما فيه من براهين بينات تُبهر العقول آية من آيات خالقه سبحانه.

ولذلك فقد نبّه القرآن الكريم في العديد من آياته أن هذه الآيات الكونية المسخّرة لخدمة الإنسان، يجد الإنسان فيها خلال انتفاعه بها وتسخيره لها كثيراً من الآيات الناطقة

بصفات خالقها الدالة عليه، وينبغي على الإنسان أن يتنبّه لها؛ لأنها ليست بعيدة عنه، بل إنها حوله مصاحبة له في غدوه ورواحه، وفي صباحه ومسائه، وفي نومه ويقظته.

فمن أراد الانتفاع بالماء فعليه التعرّف على قوانينه، متى يتحوّل إلى جماد، ومتى يتحول إلى بحار، ومتى يستخدمه لتوليد الطاقة.

ومن أراد أن ينتفع بالرياح أو الهواء فعليه أن يتعرف على قوانينها، ومتى يستطيع تسخيرها والإفادة منها.

ومن أراد الانتفاع بالأرض وتُربتها فعليه التعرّف على خصائص التربة، ومتى تكون صالحة للإنبات، ومتى لا تكون.

وكذلك عالم الأفلاك، وعالم الطب، وعالم الحشرات....إلخ.

والتسخير لا يتم إلا بمعرفة هذه القوانين وإعمالها، وهذا هو مضمار السبق الحضاري بين الأمم، وميدان السبق والتنافس بين الشعوب. وهذه القوانين التي يتم بها تسخير العالم لا تتأبّى على من تعرّف عليها مؤمناً أو كافراً؛ لأن ذلك مما أودعه الله في الكون، وجعله ذلولاً لمن توصل إلى اكتشافه وتعرّف عليه، ويستطيع بذلك أن يخضع الكون كله لصالحه، فيفيد منه، وينتفع بخبراته، وينافس غيره من أمم الأرض[8]. وهذا التسخير يستدعي من الإنسان أن يفيد مما أعطاه الله سبحانه وتعالى من المواهب والعطايا، وأعظمها نعمة العقل، الذي يسبر الإنسان به أغوار هذا الكون ويكتشف أسراره، وقد ورد الأمر بالتفكر في كتاب الله سبحانه وتعالى كثيراً، كما ورد الثناء على المتفكرين في مواطن عديدة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ [العنكبوت: 20]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ [عبس: 24 - 28]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: 5 - 8]، وقال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: 17 - 20]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: 6 - 11].

ومن الملفت للنظر في هذه الأوامر الإلهية وفي هذه التساؤلات أنها جاءت أحياناً في صيغة الأمر المباشر ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ ﴾، وأحياناً في صيغة الاستفهام الإنكاري الذي يفيد التعجب من عدم الانشغال بهذه التساؤلات ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ ﴾، مما يتضمن اللوم والعتاب، وأحياناً يجيء في صيغة الأمر المؤكد باللام؛ ليفيد الإلزام والإيجاب ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾.

ولا شك أن تعدّد الصيغ وتنوعها حول هذه التساؤلات يشير إلى ضرورة الانشغال بها والاهتمام بها كجزء أساسي في تنوير الوعي بالكون، وتثقيف العقل الجماعي للأُمّة، وبناء الجسور التي يعبر خلالها الإنسان من رؤيته الحسية لعالم الشهادة إلى بناء رؤيته العقلية لما وراء عالم الشهادة.

وهذا ركن أساسي في بناء الموقف المعرفي أن يجعل عالم الشهادة منطلقاً له إلى عالم الغيب، أن يتخذ عالم الشهادة دليلاً لها لإثبات ما وراءه ومنهجه في ذلك هو طرح هذه التساؤلات القرآنية على العقل؛ لينتقل من المحسوس إلى اللامحسوس، ومن الشهادة إلى الغيب في شكل تتوحد فيه الرؤيتان معاً الحسية والعقلية، بحيث لا تنفصل إحداهما عن الأخرى[9].

وللتفكُّر فائدة مزدوجة، فهو أولاً ينمّي في وجدان المسلم عظمة الله سبحانه وتعالى، وهو ثانياً يفضي بالمرء إلى الانتفاع بالكون وما أودع الله فيه من ذخائر ومنافع لا ينالها الكسول القانع الذي لا يُعمِل فكرَه ولا يستفرغ وُسعه في النَّظر والمقارنة والتنقيب في الكون.

وهذا التفكر هو أول العمل، وليس آخره، فالتفكير مقدمة لعمل مثمر يقوم به الإنسان، أداءً لواجب الخلافة والاستعمار في الأرض، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: 30]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: 61].

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: 168].

ويقول النبي ﷺ: « من أمسى كالًّا من عمل يده بات مغفورًا له »[10]، ويقول النبي ﷺ: « ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[11].

ولقد سبق الإسلام كل فكر متقدم في معالجة قضايا التنمية، وان لم يكن مصطلح التنمية موجود بلفظه، فقد وجد بألفاظ عديدة مترادفة، في كثير من نصوصه القرآنية والسنة النبوية وكتابات علمائه، مثل: التعمير، والعمارة، والحياة الطيبة، والتثمير.

فمصطلح التنمية يقترب من مصطلح العمران في الاقتصاد الاسلامي، فالعمران تعني: « العمل بشرع الله لتحقيق الكفاية والكفاءة للجميع للوصول إلى نمو مستمر للطيبات، وذلك بالاستخدام الأمثل لكل ما سخر الله من موارد »؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: 61]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: 97][12].

وقد أشار عدد من الكُتاب إلى أن النظرة الإسلامية للتنمية (العمران)، هي نظرة شاملة تتضمن جميع نواحي الحياة: المادية، والرُوحية، والخُلُقية، وركَّز على بناء الإنسان كمحور للعملية التنموية، فالإنسان محورها وهدفها بوصفه الكائن الوحيد في هذا الكون القادر على إحداث تغيير وتطوير، والقيام بعملية تنموية لما في الكون؛ وذلك بما اختصه به الله سبحانه وتعالى عن بقية الكائنات.

فالإسلام حرص على تنمية الإنسان وموارده؛ ليعيش حياة طيبة هانئة مليئة بالإنجاز؛ لينال ثمرة عمله الصالح في الدنيا والآخرة.

ويمكن التفرقة بين ثلاثة أنواع من مفاهيم التنمية:

أ- **التنمية الاقتصادية:** تُعرَّف التنمية الاقتصادية: بأنها العملية التي يحدث من خلالها زيادة مستمرة في متوسط الدخل الحقيقي، وتُحسِّن في توزيع الدخل لصالح الطبقة الفقيرة، وتُغيِّر في هيكل الإنتاج بما يضمن تواصل التنمية بقوة الدفع الذاتية[13].

ب- التنمية الاجتماعية: تشير التنمية الاجتماعية ليس إلى مجرّد زيادة دخل الفرد، ولكن إلى توفير مزيد من الخدمات الاجتماعية التي تُحسِّن من نوعية العنصر البشري، مثل التعليم والصّحة والتدريب المهني والإسكان وغيرها[14].

فقد يتوفر لدى الفرد المال ولكنه لا يستخدمه في تحسين مستواه العلمي أو الصحّي، إمّا لجهله بكيفية عمل ذلك، أو لعدم توفر الخدمات في هذه المجالات بدرجة كافية.

جـ- التنمية البشرية: لا تعني التنمية البشرية أن تقوم الدولة بإشباع جميع احتياجات الأفراد من السِّلع والخدمات الأساسيّة، وإنما تعني تدريبهم على كيفيّة القيام بعمل ذلك بأنفسهم.

فالتنمية لا تعني إعطاء سمكة لكل فرد في المجتمع، وإنما تعني تعليم كل فرد كيف يصطاد[15].

والحضارة الغربية رغم اهتمامها بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية، لكنها لم تهتم بالجانب الروحي، فأهملت الجانب الديني في برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية، واعتمدت على مبدأ الحرية الفردية لتحقيق الرفاهة الاقتصادية والاجتماعية، وترتب على ذلك ظهور انحرافات وسلوكيات وأفعال إجرامية من بعض الأفراد في المجتمعات الغربية، وحدوث الصراعات بين رجال الأعمال والعمال، والحكومات والعمال أيضاً[16].

المبحث الثاني: السببية والتوكل وعلاقتهما بالعمل

قانون السببية وربط الأسباب بمسبباتها من أعظم القوانين الربانية في هذا الكون، وسنة إلهية جارية، فلقد أقام الله الكون ونظام الحياة على قانون السببية، وقانون الله في الكون جارٍ على السنن الجارية المبنية على ترتب المسببات على الأسباب، والبشر - خاصة المسلمين - مطالبون باستقصاء الأسباب المتاحة لديهم في كل ما يعن لهم في حياتهم، سواء في تعاملهم مع الكون أو فيما بينهم، بحيث يحظر على المكلف ترك الأسباب التي توصِّله إلى حق له أو لغيره، خاصةً إذا جرَّ هذا الترك إلى جلب مفسدة أو دفع منفعة واجبة. وإذا ثبت أن الأصل في قانون الله في الخلق هو السير على السنن الجارية، وأن السنن الخارقة في محل الاستثناء، تبيَّن أهمية سنة الأسباب ومدى المساحة التي تشغلها في الكون وفي حياة البشر.

ولعل في هذا ما يدحض مزاعم أعداء الإسلام الذين حاولوا في كثير من بحوثهم ومناقشاتهم أن يربطوا بين تخلف المسلمين وبين ما زعموا من الركون إلى ترك الأسباب في عقائد الإسلام، افتراءً وتكذيباً وخرصاً، دون تمحيص علمي نزيه منهم لمضمون تلك العقائد ومراميها، ودون استشهاد من واقع تاريخ الإسلام بمن تمثلت فيهم تلك العقائد وتجسدت معانيها، من الرعيل الأول الذين أشربت نفوسهم روحها ومعانيها الحقة، فانطلقوا في الدنيا - تحت تأثيرها - يحققون الانتصارات الرائعة، العسكرية والسياسية والاجتماعية، بما يشبه المعجزات[17] .

وبعيداً عن الدخول في الجدل الكلامي في علاقة الأسباب بالمسببات، فإن مذهب أهل السنة والجماعة هو: قيام الجوارح بالأسباب، واعتماد القلب على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى، وهو الحق الذي دلت عليه النصوص الشرعية، والدلائل العقلية، وهو المذهب الوسط بين طرفين، حيث جمع أطراف الحق في كل مذهب، فأثبتَ للأسباب تأثيراً في مسبباتها، لكن لا بذاتها، بل بما أودعه الله تعالى فيها من القوى الموجبة[18]، وهي تحت مشيئته وقدرته، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه .

« فالموحِّد المتوكِّل لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها، بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها، بل يكون قائماً بها ملتَفِتاً إليها، ناظراً إلى مسبّبها سبحانه ومجريها، فلا يصح التوكل شرعاً ولا عقلاً إلا عليه سبحانه وحده »[19] .

وسنذكر بعض الأدلة في وجوب الأخذ بالأسباب وعدم منافاتها للتوكل على الله تعالى .

أولاً: من القرآن الكريم:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة، والعلم على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد منها، وخاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد، فيحاولون فيها ترك الأسباب ولا يصبرون على بذل الوسع في تحصيل كل ما يتهيأ لهم من أسباب أمرهم الله بالأخذ بها.

ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد:

قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: 60].

فالآية أصل في الأمر بالأخذ بأسباب القتال والإعداد له.

ففي الآية يأمر الله المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب، وما يتقوَّوْن به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين، من السلاح والرمي ورباط الخيل[20].

التعلق بالسبب المتاح من مقتضيات الشرع وسننه: المراد بالقوة في الآية عموم معنى القوة دون الاقتصار على نوع دون نوع، خاصةً أن الله عزّ وجلّ عمَّ الأمر بها، وهي تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس النبال من القوة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطائرات والصواريخ من القوة في جيوش عصرنا.

وكذلك فسَّر الآلوسي القوة هنا بأنها «ما يتقوى به في الحرب كائناً ما كان»[21].

وقوله: ﴿**مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾، يوجب على المسلمين في كل عصر إحراز كل علم يوصل إلى كل اختراع يجعل لهم القوة والغلبة دائماً، للحكمة التي ذكرها الله في الآية، فإنه لا يزال لهم في الظاهر أو الباطن عدو، عرفوه أو جهلوه، لا يكفيهم شره إلا خوفه من تلك القوة الغالبة التي أمرهم الله بإعدادها.

والإرهاب بإعداد القوة، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهرة، غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة، ولذلك أردفه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ**﴾؛ ليدل على جماع الغرض، وذلك أن الغرض الحقيقي من إعداده القوة هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، وحفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه وأعراضه وأمواله[22].

وإذ قد كان إعداد يستدعي إنفاقاً وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفَّل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، فقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**﴾، وسبيل الله: هو الجهاد لإعلاء كلمته..

وعلى ذلك فالمعنى: «وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في شراء آلة الحرب من سلاح أو حراب أو كراع[23] أو غير ذلك من النفقات في جهاد أعداء الله من المشركين يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة»[24].

وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للإهلاك والمذلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، أي: إذا لم تبذلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية «النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك»[25].

قال ابن عاشور: «ووجه الحاجة إلى هذا الأمر تنبيه المسلمين، فإنهم قد يقصرون في الإتيان على منتهى الاستعداد لعدو قوي؛ لأنهم قد ملئت قلوبهم إيماناً بالله وثقة به، وملئت أسماعهم بوعد الله إياهم بالنصر، نُبهوا على أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم أخذ العدة المعروفة، فلا يحسبوا أنهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل النصر التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبباتها، على حسب الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سنّه الله في الأسباب ومسبباتها، فتطلب المسببات دون أسبابها غلط وسوء أدب مع خالق الأسباب ومسبباتها.

فالمسلمون إذا بذلوا وسعهم، ولم يفرطوا في شيء، ثم ارتبكوا في أمر بعد ذلك فالله ناصرهم ومؤيدهم فيما لا قِبَل لهم بتحصيله، ولقد نصرهم الله ببدر وهم أذلة، إذ هم يومئذ جملة المسلمين، وإذ لم يقصروا في شيء.

فأما أقوام يتلفون أموال المسلمين في شهواتهم ويفوتون الفرص وقت الأمن، فلا يستعدون لشيء، ثم يطلبون بعد ذلك من الله النصر والظفر، فأولئك قوم مغرورون؛ ولذلك يسلط الله عليهم أعداءهم بتفريطهم، ولعله يتداركهم في خلال ذلك بلطفه فيما يرجع إلى استبقاء الدين»[26].

لكل ما سبق فقد أوجبت الآية الإنفاق في سبيل الله، وألمحت إلى أن اعتقاد كفاية الإيمان بالله ونصر دينه في هزم الأعداء - دون أخذ الحيطة وبذل الوسع في ذلك - اعتقاد غير صحيح؛ لأنه كالذي يلقي بصاحبه إلى الهلاك، ويقول سينجيني الله تعالى.

ويؤيد هذا التأويل ما ورد عن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة (القسطنطينية) فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف للروم حتى دخل فيها فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل! وإنما أُنزلت فينا معاشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو[27].

وعموم الآية يقتضي الإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده[28].

ويدخل النهي - الوارد بالآية - التطوُّح في الحرب بغير علم بالطرق الحربية التي يعرفها العدو[29]، وكذا عدم الوقوف على ما يمكن الإطلاع عليه من وسائل الحرب وعتاده التي شهدت تطوراً كبيراً في هذا العصر.

ومن التطبيقات القرآنية كذلك في وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري لإتقان العمل والنهوض الحضاري للأمم ما ورد في قصة ذي القرنين، التي تبيّن كيف ربط الإسلام إمكان الإنجاز بمعرفة الأسباب، وكشف السنن، التي تحكم الكون وعالم الحياة والأحياء.

وقد قدَّم القرآن (ذا القرنين) أنموذجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمة لا بد منها لإتقان العمل والإبداع والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً.

لقد مكَّن الله له في الأرض، فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم، ويسَّر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85].

سار ذو القرنين وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرَّف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المنعة، ووقف على أسباب التردي، ووسائل التمكين في الأرض، فوضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر الموارد المطلوبة لإتمام علمية الإنجاز، وبذلك استكمل الأسباب المادية التي توصله إلى ما يريده مع ما فيه من التقوى والصلاح، فاكتملت لديه الأسباب المادية والمعنوية المكلف بها كل مؤمن ليواجه الحياة ويسير وفق سننها ونظامها الذي وضعه الله قانوناً لها ولمن يريد أن يتعامل معها[30].

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل بها في الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن ذلك بواسطة ما سنَّه الله من أسباب في هذا الكون، ووسائل تؤدي إلى غاياتها المرادة منها، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، وليتيقن كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة إنما يتحصل بأسباب ووسائط سواء المادي منها أو المعنوي، من قبيل ما تحقق به ذو القرنين، كما تسوقه إلينا الآيات الكريمة في قوله تعالى:
﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا
﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن
تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا
تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾
فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى
حَقًّا ﴾ [الكهف: 83 - 98].

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحها الله له واتبعها واستقصاها، حتى إن القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها، حيث يقول: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85]، وبعدها يكرر: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89 - 92]، وقرن ذو القرين ذلك بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوى وعمل صالح في قوله: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم.

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، وهذا أمرٌ باتخاذ الأسباب.

- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: 10]، وهذا كذلك.

- قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: 69]، قال القرطبي: « فالغنيمة اكتساب »[31].

إن الأمر الشرعي قائم على حث الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله عزّوجلّ لهم بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15]، فقد تكفّل الله برزق مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]، قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: 60].

لكنه سبحانه وتعالى جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة.

ومجمل القول أن المراد من الآيات الواردة في كفالة الرزق للخلق هو: ضمان الرزق، وليس المراد نفس التسبب إلى الرزق، بل الرزق المتسبب إليه، ولو كان المراد نفس التسبب لما كان المكلَّف مطلوباً بتكسُّب فيه على حال، ولو بجعل اللقمة في الفم ومضغها، أو ازدراع

الحَبّ، أو التقاط النبات أو الثمرة المأكولة، لكن ذلك باطل باتفاق، فثبت أن المراد من النصوص الشرعية هي عين المتسبِّب إليه[32].

- ومظهر آخر يربط فيه الخالق جلّ وعلا بين ما كفله لبعض عباده بتحققهم بما أوجب عليهم من السعي في الأسباب وامتثال أمر الله فيها، ذلك المظهر هو الوعود التي وعد الله بها عباده، شريطة أن يتصفوا بم أمرهم وينتهوا عما نهاهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ [النور: 55].

فالتكاليف التي تضمنتها هذه الآية من التوحيد والإيمان وعمل الصالحات، والتي جعلها الله قواماً لصلاح أمور الأمة، ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسباباً لها، وكان الموعدة كالمسبِّب عليها، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وهذا ما أشير إليه في آية أخرى، حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 105، 106].

- **مراعاة صورة الأسباب في الخوارق والمعجزات:** إذا كان الأصل في السنن الجارية هو تعلق المسبِّبات بأسبابها، وارتباط النتائج بمقدِّماتها، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق؛ ليظل قانون السببية عالقاً بذهن المكلَّف ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة فيه، والقرآن زاخر بالآيات التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدد، ومنها:

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة: 60]، ففي الكلام حذف تقديره: فضرب فانفجرت، قال القرطبي: « وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب، لكن أراد أن يربط المسبِّبات بالأسباب؛ حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد »[33].

وقوله تعالى فيما أمر الله عزّوجلّ به مريم عليها السلام في حالة ضعفها ساعة ولادة عيسى عليه السلام، حيث جاء قوله تعالى لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: 25]،

فقد استُدل من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً فإن الله قد وكل ابن آدم إلى سَعْي ما فيه؛ لأنه أمر مريم عليها السلام بهزّ النخلة؛ لترى آية، وكانت الآية بأن لا تهزّ هي[34].

وقد أشار الآلوسي إلى هذا المعنى فقال: « وفي أمرها بالهزّ إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب، وهو لا ينافي التوكل، وما أحسن ما قيل:

ألـــم تـــر أن الله أوحـــى لمريـــم ❁ وهــزي إليـك الجــذع يسـاقط الرطـب

ولـو شـاء الله أحنى الجـذع مـن غير هـزة ❁ إليهـا، ولـكن كـل شـيء لـه سـبب »[35]

ثانياً: من السنة النبوية:

فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه ﷺ ظَاهَر في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة في الشعب، وخندق حول المدينة، وأذِن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ليدلّه على طريق الهجرة[36]، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن تنظل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يظن برسول الله ﷺ أنه مال إلى شيء من الأسباب غفلة مقدار طرفة عين[37]، وهو صاحب التوكل حقاً، وأكمل المتوكلين بعده من اشتم رائحة توكله من مسيرة بعيدة أو لحق أثراً من غباره .

وعلى مستوى السنة القولية فالنصوص في السنة النبوية أكثر من أن تحصى، ومنها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « بُعثتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذِّلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[38]، والشاهد من الحديث قوله: « وجُعل رزقي تحت ظل رمحي »، وفيه دليل على طلب الرزق، وعدم القعود . قال الحليمي: « فلو كان انتظار الرزق بالصبر والصمت أفضل من طلبه بما أذن الله فيه، لَمَا حرَم رسولَ الله أفضل الوجهين، وعرَّضه لأرذلهما »[39].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له، فقال: يا رسول الله! أدَعُها وأتوكّلُ؟ فقال: اعقِلْها وتوكَّلْ »[40]. وهذا الحديث أصل في التوكل، وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز، مع الأمر بالتوكل .

عن المقدام بن معدي كرب، عن النبي ﷺ قال: « ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[41]، قال ابن حجر: « وفي الحديث أن التكسُّب لا يقدح في التوكل »[42].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً »[43]، قال أبو حاتم الرازي: « وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق »[44]. فالطير إذا غدت إنما تغدو بطلب الرزق، ومعروف من عادتها أنها لا تقع إلا حيث تبصر لقطاً، وأنها لا تزال تسبح في الهواء حتى ترى الماء، فتنزل عليه، وكل ذلك ابتغاء في الرزق[45]. وقال الإمام أحمد: « ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق »[46].

وقد عاب رسول الله ﷺ من جعل التوكل ذريعة للكسل والعجز، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه: « أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: ما قلت؟ قال قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإن غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل »[47].

قال الإمام أحمد: وروينا عن ابن شهاب مرسلاً في هذه القصة أن أحدهما تهاون ببعض حجته لم يبلغ فيها، ثم حين قضى للآخَر، فقال هذا القول، فقال النبي ﷺ: « اطلُبْ حقَّك حتى تعجز، فإذا عجزت فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، فإنما يقضى بينكم على حججكم »[48].

فالنبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه أن يحرص على ما ينفعه، ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب، وقول: حسبي الله ونعم الوكيل، بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه[49].

هدي السلف الصالح ومأثورهم في ذلك:

وعلى هدي النبي ﷺ وصحابته سار من جاء بعدهم رضوان الله عليهم.

فهذا ابن المبارك يقول له الفضيل، الإمام الزاهد: إنك تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي! أنا أفعل ذا لأصون وجهي وأكرم بها عِرضي، وأستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به، فقال له الفضيل: يا ابن المبارك! ما أحسن ذا إن تم ذا[50] .

وهذا أبو قلابة، الإمام المفسر، يكتب إلى أيوب بكتاب يقول فيه: الزم السوق، واعلم أن الغنى معافاة، وفي رواية: الزم سوقك، فإن فيه غنى عن الناس وصلاحاً للدين[51] .

وسأل رجلٌ الحسنَ فقال: يا أبا سعيد! أفتحُ مصحفي فأقرأه حتى أُمسي، قال الحسن: اقرأه بالغداة، واقرأه بالعشي، وكن سائر نهارك في صنعتك وما يصلحكم[52] .

وكان الإمام أحمد يأمر بالسوق، ويقول: ما أحسن الاستغناء عن الناس[53]، وسئل عن قوم لا يعملون ويقولون: نحن متوكِّلون، فقال: هؤلاء مبتدعة[54] .

وليس هذا خاصا بهذه الأمة فحسب، بل إن التكسب والأمر به هو ديدن الأنبياء السابقين، هم سادات المتوكلين، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

يقول ابن الجوزي رحمه الله: « فقد كان آدم عليه السلام حراثاً، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطاً، وداود يصنع الدروع، ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة، صلى الله عليهم أجمعين »[55] .

إذن فالصحيح الذي تدل عليه النصوص هو: أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار[56]، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق[57]، ونحن مأمورون بأن نمارس عبودية الأخذ بالأسباب، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل؛ لأنه «...لا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل » .

وعليه أن يتقي عند الأخذ بالأسباب أمرين:

الأول: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاءها وخوفها، فهذا شرك يرق ويغلظ بين ذلك .

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفرح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها؛ تجريداً للتوكل، واعتماداً على الله وحده[58] .

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز »[59] .

فأمَرَهُ بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب، ونهاهُ عن العجز، وهو نوعان:

1 - تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها.

2 - تقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه، وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[60] .

وبهذا يظهر أن لا تعارض البتة بين التوكل واتخاذ الأسباب، بل إن التوكل ذاته هو من جملة الأسباب التي أمرنا الله تعالى باتخاذها[61] .

التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب: إذا كان الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال فإن من مقتضى ذلك أن يتحقق بصفة التوازن التي تضع الأمور في نصابها، وتفرق بين المقامات بحسب الأحوال والأزمان، بل هذه الصفة - التوازن - المشمولة بالحكمة الإلهية هي سنة من سنن الله في خلقه، يقول تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ**﴾ [البقرة: 251]، ويقول: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [الحجر: 21] .

ولذلك نُقل عن الإمام أحمد أنه قال: الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بيَّنها الله تعالى لعباده وأذن فيها، وهو يعتقد أن المسبب هو الله سبحانه وتعالى وما يصل إليه من

المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عزّ وجلّ، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب، فتكون ثقته بالله عزّ وجلّ واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب[62].

وقال ابن أبي جمرة: « مهما أمكن المكلف فعل شيء من الأسباب المشروعة لا يتوكل إلا بعد عملها؛ لئلا يخالف الحكمة، فإذا لم يقدر عليه وطَّن نفسه على الرضا بما قدّره عليه مولاه »[63].

وبالتتبع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين، نجد أن جمهورهم يقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرُّز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سبب قدح في توكله[64].

ويتجلى هذا التوازن بوضوح مبيناً أثر عقيدة التوحيد العظيم في قلوب الذين بلغ ذلك التوحيد شغاف قلوبهم: في قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند وصيته لهم قبل دخولهم مصر لجلب ما يحتاجونه من طعام ومواد غذائية حين أصاب بلدهم الجدب والقحط، فقد وصَّاهم: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف: 67] .

فيعقوب عليه السلام ضرب لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكل على الله عزّ وجلّ؛ إذ في قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه[65]، فقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ ﴾ [يوسف: 67]، أي: « لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناء مبتدئاً من عند الله،

بل هو الأدب والوقوف عند ما أمر الله، فإن صادف ما قدّره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدَّره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط »[66].

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلِّم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدباً مع واضع الأسباب ومقدِّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليها قول النبي ﷺ: « اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِق له »[67].

وبهذا يثبت أن الأسباب لا بد لها من سياج قوي من التوكل، تدور في فلكه ولا تخرج عن حقيقته؛ ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد؛ وأجدر لامتثال أمر الله؛ وذلك لأن الأسباب العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها، مفتقرة إلى ما وراءها كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوسل إليها على سبب وراءها، ليتم لها التأثير، ويكون ذلك منه جرياً في سبيل الرشد والصواب، وذلك السبب الذي يجب التوكل عليه في الأمور هو الله سبحانه وحده لاشريك له، فإن الله لا إله إلا هو، رب كل شيء، وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

إن من أحكام القرآن التعلق بالله تعالى وترك الأسباب، ومنها: عمل الأسباب في الظاهر وخلو الباطن من التعلق بها، وهو أجلُّها وأزكاها؛ لأن ذلك جمعٌ بين الحكمة وحقيقة التوحيد، وذلك لا يكون إلا للأفذاذ الذين منّ الله عليهم بالتوفيق، ولذلك مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68]؛ لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد، فقال: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 67]، فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين[68].

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن - على وجه التفصيل - هو حادث الهجرة الذي اصُطحب فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد استوفيا هما الاثنان في هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحداً منها، غير أن هذه الأسباب - مع مراعات الدقة في اصطناعها - لم تحُل بينهما وبين أن تحيط بهما قريش وهما في الغار.

وأبـو بكـر لـم يـدرك مـن الحـدث إلا ظـاهره، فخـاف مـن أجـل ذلـك وارتـاع - وجَـلًا على النبي ﷺ إذا اسـتيقن أنـه لـيس بينهمـا وبـين أن يقعـا في أيـدي المشـركين إلا أن ينظـر أحـد المشركين إلى ما تحت قدميه.

أما النبي ﷺ فقد رأى ما وراء ظاهر الحدث، لقد رأى أنه قد استوفى جميع الأسباب التي كلفه الله بها، لم يغفل منها سبباً زهداً فيه أو ازوراراً عنه، ولكنه أخذ بجميع الأسباب، دقيقها وجليلها على السواء، ومن يفعل ذلك تحمله عقيدته في الله عزّ وجلّ أن يبقى في مقام التوكل على الله، يستظل بمظلة فضلة، وينضوي تحت لواء سكونه.

ولذلك كان النبي ﷺ في هذا الحدث الجليل وادعاً ساكناً، وكان الصديق رضي الله عنه رجائه وتوكله مضطرباً، والفرق بين الموقفين عظيم[69].

وعلى مستوى السنة القولية - في هذا الصدد - نجد أن النبي ﷺ قال: « فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد »[70]، في الوقت الذي ثبت فيه أن النبي ﷺ أكل مع المجذوم[71].

وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه ﷺ أكل مع المجـذوم ليبـين أن الله هـو الـذي يمـرض ويشـفي، وأنـه لا شيء يعـدي بطبعـه، نفياً لما كانت الجاهليـة تعتقـده مـن أن الأمـراض تعـدي بطبعهـا مـن غير إضـافة إلى الله، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك.

في حين نهى النبي ﷺ عن الاقتراب من المجذوم؛ ليبيّن أن هذا من الأسباب التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها.

ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفي ذلك فسحة لمقام التوكل على الله عزّوجلّ[72].

ولدقة المسلك بين المقامين ظن كثير من الناس التعارض بينهما، ولم يفقهه إلا القليل من الذين أشربت قلوبهم عقيدة التوحيد الخاص وحب القرآن، وسهرت جوارحهم في النظر فيه آناء الليل وأطراف النهار، ولذلك كان الصحابة العلماء على رأس هؤلاء القلة الذين فقهوا أن لكل حال مقامها الذي شرعه الله عزّوجلّ بها.

ومن ذلك ما ورد « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتواكلون، إنما التوكل رجل ألقى حبَّه في بطن الأرض وتوكل على ربه عزّ وجلّ »[73].

إن المؤمن الخالص يأخذ بالأسباب التي شرعها الله عزّ وجلّ مفضية إلى مسبباتها، وهو في أخذه لهذه الأسباب متوكل على الله الذي بيده مقاليد كل شيء. وعلى هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غير غوي يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإدارة أموره، ولا أن الأسباب العادية باستقلالها تقوى إلى إيصاله إلى ما يبتغيه من المقاصد، بل عليه أن يلتجئ في أموره إلى وكيل يصلح شأنه ويدبر أمره أحسن تدبير، وذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذي لا يقهره شيء، الغالب الذي لا يغلبه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

والحاصل أن الأصل في نظام الكون اعتبار الأسباب مع التوكل على الله إلا أن لا يكون هناك سبب، فلا مناص من التعلق المحض بمحض التوكل على الله.

والتباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عزّ وجلّ دون الأسباب لا يناقض التوكل[74]. وهذا الجمع لا يوفق له إلا من ذاق قلبه حلاوة التوحيد وفتح الله عليه بمنه وكرمه نسأل الله من فضله وقد أطلت في هذه القضية لأهميتها وقوة علاقتها بالعمل، فإن كثيرا من الناس يركن للتواكل والخمول والكسل محتجا بالتوكل والقدر والجهل بحقيقة الأسباب.

المبحث الثالث: عقيدة التوحيد وصناعة الشخصية العاملة المتقنة

تبين لنا من خلال المطالب السابقة كيف أن الإسلام حث على العمل، وعدّه عبادة مطلوبة من الإنسان كعبادات الشعائر، ولا ريب أن عقيدة التوحيد تؤسس في الإنسان أركان الشخصية العاملة التي لا تهزها الرياح، ولا تقهرها الظروف المعاكسة، ولا تزري بها المشكلات والعوائق؛ لأنها شخصية قوية بقوة التوحيد، أصلها ثابت وجذورها عميقة. وتثمر أعمالاً متقنة ولابد أن تتحلى هذه الشخصية الموحدة بصفات تؤهلها للعمل والإتقان فيه وإبداعه وسوف أورد بعض ملامح الشخصية العاملة المتقنة التي تصنعها العقيدة باختصار:

أ- **القوة:** قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ**﴾ [القصص: 26]، وحكى سبحانه عن يوسف عليه السلام: ﴿**قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: 55].

والقوة هنا لا تقتصر على قوة الجسد وقدرته على تحمل عبء العمل والكسب، وإن كانت تشملها بطبيعة الحال، كما ورد في الحديث عن عن عبدالله بن عدي بن الخيار أن رجلين حدثاه أنهما أتيا رسول الله ﷺ يسألانه عن الصدقة، فقلب فيهما النظر، فرآهما جلدين، فقال: « إن شئتما أعطيتكما، ولا حظَّ فيهما لغني ولا لقوي مكتسب »[75].

وهذا الحديث يستلزم تحريم الصدقة على القوي الجلد؛ لأنه يجب أن يعمل ما دام قويًا جلدًا، قال أحمد بن حنبل معقبًا على هذا الحديث: ما أجوده من حديث، وقال الصنعاني: والحديث من أدلة تحريم الصدقة على الغني وعلى القوي المكتسب، يقول النبي ﷺ: « اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله »[76].

ولكن القوة أيضاً تشمل إضافة لقوة الجسد: قوة الشخصية، وقوة النفس وقدرتها على تحمل أعباء العمل وهمومه، وقوة العقل واهتدائه إلى القرارات والتدابير الصحيحة، وقوة القلب التي تتيح للإنسان أن يتخذ القرار الصحيح وإن كان صعباً[77].

ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من الهم والحزن، ومن العجز والكسل، ومن البخل والجبن، ومن غلبة الدين وقهر الرجال.

ب- **الأمانة:** وما أحوج العامل المتقن إلى غريزة الخوف والمراقبة لله عزّ وجلّ، فتنأى النفس عن السرقة والغصب والغشّ والاختلاس والغبن والغرر والظلم والتطفيف والبخس والتناجش، وغيرها من المحرمات[78]، وسائر أنواع الفساد التي تعاني منها الشعوب المسلمة في هذا العصر حتى طفح الكيل ببعض شعوبها فثارت في وجه الفساد.

وإن أسمى أنواع الأمانات البشرية، هي الأمانة الخالصة لوجه الله عزّ وجلّ، فالأمين على حاجات الناس قد يتمسَّك بالأمانة، ويزداد تمسكًا وحفاظًا كلما أثنى على أمانته الناس، فزيادة التمسك بالأمانة يرجع إلى ثناء الناس لا ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ، ولذلك لم تكن خالصة لله، بل قد تعتريها شبهة الاستجابة لثقة الناس فيه، أما الموحد لله فشأنه مختلف، إذ تكون

أمانته أسمى أنواع الأمانات؛ لأنها خالصة لله عزّ وجلّ، لا تظاهرًا ولا رياء ولا سمعة ولا طمعًا في شهوات النفس، وما أحوجنا في عصرنا إلى هذا النوع السامي من الأمانة التي يغرسها التوحيد في النفس، حينئذ يتعامل الناس فيما بينهم على أساس مجرد من الهوى أو الرياء أو التظاهر، وتكون تصرفاتهم ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ، فلا يتظالم الناس ولا يأخذون أموال غيرهم بالباطل[79].

قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: 181 - 183]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 7 - 9]، وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 1 - 6]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282].

وقال أيضًا: « الخازن الأمين الذي يؤدي ما أمر به طيبة به نفسه أحد المتصدقين »[80]، ومن خلق الإسلام في العمل والإنتاج أن يوفي العامل شروط عقد العمل التي اتفق عليها، قال ﷺ: « المسلمون على شروطهم إلا شرطًا حرم حلالا أو أحل حرامًا »[81]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

جـ- التوكل: وقد أفردت له في بحثي مبحثا مستقلاً لأهميته للعمل، ومن أكبر ما يعين على التوكل: أن يعلم الإنسان أن ما يسعى لنيله من المكاسب من خلال العمل إنما هو من فضل الله، وقد تكرر في القرآن الكريم التعبير عن المكسب المادي بأنه فضل الله، مع الحث على ابتغائه وطلبه، والسير في الأرض والسفر من أجل نيله، وتكرر ذلك في غير ما آية في كتاب الله تعالى، وهو ربط عظيم للدنيا بالآخرة، وبالسعي في جني المال بجني الفضل والثواب: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ

تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: 9 - 11] .

وقال الرسول ﷺ: « لو أنكم توكلون على الله حق توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير »[82] .

د- الصبر: إن الوصول إلى النتائج العظيمة يتطلب طاقة عالية من الصبر وعدم التعجل في قطف الثمرة .

والعقيدة تزرع في الوجدان المسلم قيمة الصبر، من خلال شعوره بمعية الله تعالى للصابرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: 153]، وقال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 126، 127] .

والصبر له دوره الفعال في مجال إنجاز الأعمال بإتقان، فهو سلاح قوي يقاوم الكسل والخمول حتى عده النبي ﷺ نصف الإيمان فقال: « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء »[83] .

هـ- النشاط والجلد: إن العمل المتقن يتطلب المواظبة والاستمرار، فبهما يتضاعف الدخل، ويتزايد الإنتاج، ويسمو الاقتصاد الإسلامي .

وقد تعوذ النبي ﷺ من كل ما يضعف فاعلية الإنسان، وذلك في الحديث الجامع: « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن »[84] .

ومما هو جدير بالذكر أن عمارة الأرض التي كلف الله بها الإنسان لا تتم إلا بالعلم المتفوق، والعمل الدءوب، والتقنية المناسبة للزمان والمكان في كل عصر ومصر .

ومما يثبت أن المسلم مطالب بالعلم السباق والعمل المبدع أن الله كلفه بإعداد القوة المرهبة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 60] .

ولا تكون القوة مرهبة ما لم تكن متفوقة على غيرها، وهذا التفوق لا يمكن أن يتأتى ما لم يستند إلى علم سباق وعمل معطاء، وتقنية غلابة يتفوق بها المسلم على المتوافر لدى الغير، فتكون بذلك قوة مرهبة.

ويبين الله تبارك وتعالى أن الإحسان في العمل يحقق الحصول على الأجر، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

و- التدريب والتأهيل: الحديث عن أهمية التدريب لا يمكن أن نتجاهل فيه أنموذجين من القرآن الكريم، هما نبيا الله نوح وداود عليهما الصلاة والسلام.

فقد قال سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: 37].

وقال عن داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: 10 - 11].

ز- حسن الصلة بالله: وذلك بنسبة الفضل إليه، وشكره على تيسيره للعمل، وعدم اغترار الإنسان بما يملك من مهارة وقدرة، ويتضح هذا في قصة ذي القرنين، الذي كان يستشعر ويذكر نعمة الله عليه قبل بناء السد، ثم نسب الفضل إلى الله بعد الفراغ من بناء السد، قال عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: 83 - 98].

ح- الالتزام بالضوابط الشرعية: قال ﷺ: « إن الله ورسوله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل: يا رسول الله! أرأيت شحوم الميتة؟ فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: لا هو حرام، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم شحومها، جملوه ثم باعوه، فأكلوا ثمنه »(85).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: « لا يكسب عبدٌ مالا حرامًا، فيتصدق به فيقبل، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيّئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »(86)، وقال أيضًا: « من غشَّنا فليس مِنّا »(87)، وقال ﷺ: « إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به »(88).

ويؤمن العامل المسلم بأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

ط- عدم الانهيار حين تخيب النتائج: إنّ العمل نفسه مقصود في نظر الإسلام؛ ولذا قال ﷺ: « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فليفعل»(89).

ولا ريب أن نتيجة العمل مطلوبة بقوة، ولكنها ليست شرطاً في قيام العمل نفسه، وإلا لكفّ الناس عن العمل بمجرد تحقيق النتائج، على أن ذلك لا يعني أبداً عدم الاهتمام بالنتائج، فلا بد من درس النتائج ومراجعتها والوقوف على أسباب تحققها أو تخلّفها، واستخلاص العِبَر المستفادة منها، ومن ثم تقويم العمل نفسه على ضوئها، ويبقى المعيار الأمثل لنجاح أي عمل في نظر هذا الدين هو أن يُرضي الله عزّ وجلّ، وبهذا المعنى لا يُخفِق عَمَلُ عاملٍ مسلم ما دام يجمع بين فضيلتي الإخلاص من جهة والصواب (بموافقة الشرع) من جهة أخرى.

وقال عليه الصلاة والسلام: « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان »(90).

المبحث الرابع: أثر عقيدة التوحيد في الحث على العطاء والتطوع

قيمة العطاء في الإسلام: للعطاء في الإسلام مكانته العظيمة، فهو من علامات الإيمان ودلائل الفلاح، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]، وقال عزّ وجلّ في

بيان صفات المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: 3]، وأشار جلّ شأنه إلى أن من أوصاف أهل الجنة: أن في أموالهم نصيباً معلوماً محدداً للمحتاجين والفقراء، قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج: 24، 25].

وقد تواردت النصوص في بيان العلاقة بين قوة العقيدة في قلب المسلم وبين كثرة عطائه، وأساس ذلك تخلص المؤمن من داء الشُّح، الذي هو المانع الأكبر للعطاء والعقبة الكؤود التي تجعل المرء مكبَّلاً عن البذل، فإن تجاوزها كان من أهل النجاة والفلاح، قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴾ [البلد: 11 - 16].

وينفي النبي ﷺ الإيمان عن أهل الشح، فيقول: « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع »[91]، وقال عليه الصلاة والسلام: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم..... رجل كان له فضل ماء فمنعه ابن السبيل »[92]، وفي حديث آخر، يقول عليه الصلاة والسلام: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[93].

ولا ريب أن المؤمن سيجد في هذه النصوص وغيرها ما يدفعه إلى العطاء والتطوع دفعاً.

ولنا مع هذه الدوافع وقفات في التالي:

الدوافع العقدية للعطاء والتطوع:

الحرص على أصل الإيمان: إن الموحد الذي يقرأ النصوص المتواترة التي تربط العطاء بالإيمان، وبالفلاح في الآخرة، ويقرأ النصوص الأخرى التي تربط الخسران يوم القيامة بالإمساك عن البذل والإحجام عن العطاء، سيجد نفسه مندفعا نحو العطاء ليحافظ على إيمانه من الخدش، وليكون ممن وقاهم الله شح أنفسهم.

والله سبحانه وتعالى وصف أهل الإيمان الصادق ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: 15]، وقال سبحانه: في وصف المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾ [الأنفال: 2، 3]، إلى غير ذلك من الآيات.

وينظر الموحد في مقابل أهل الإنفاق، فيرى القرآن ينعت من خلت قلوبهم من العقيدة بالإمساك والبخل، كما قال جلّ شأنه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ [المدثر: 38 - 44].

وقال جلّ وعزّ: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ [النساء: 39].

ويقول سبحانه وتعالى في وصف مشهد من مشاهد العذاب في الآخرة: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الحاقة: 30 - 34].

وقال سبحانه وتعالى في وصف المنافقين: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة: 67]، وقبض اليد هنا أوسع من مجرد قبض اليد عن الإنفاق، فهو يتعدى إلى الإمساك عن تقديم ما يحتاجه المجتمع المسلم مما لا يجوز ولا يليق إمساكه، لكن الشح تملّك قلوب المنافقين فمنعهم عن الإنفاق في سبيل الله.

وقال عزّ وجلّ: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: 4 - 7].

وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »[94].

وَقَوْلُهُ: « فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »، يَحْتَمِلُ أَنَّهُ يُرِيدُ الْهَلَاكَ الدُّنْيَوِيَّ الْمُفَسَّرَ بِمَا بَعْدَهُ فِي تَمَامِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: « حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »، وَهَذَا هَلَاكٌ دُنْيَوِيٌّ، وَالْحَامِلُ لَهُمْ هُوَ شُحُّهُمْ عَلَى حِفْظِ الْمَالِ وَجَمْعِهِ وَازْدِيَادِهِ وَصِيَانَتِهِ عَنْ ذَهَابِهِ فِي النَّفَقَاتِ فَضَمُّوا إِلَيْهِ مَالَ الْغَيْرِ صِيَانَةً لَهُ وَلَا يُدْرَكُ مَالُ الْغَيْرِ إِلَّا بِالْحَرْبِ، وَالْغَضَبِيَّةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْقَتْلِ وَاسْتِحْلَالِ الْمَحَارِمِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ: الْهَلَاكُ الْأُخْرَوِيُّ، فَإِنَّهُ يَتَفَرَّعُ عَمَّا اقْتَرَفُوهُ مِنْ ارْتِكَابِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ، وَالظَّاهِرُ حَمْلُهُ عَلَى الْأَمْرَيْنِ.

والْأَحَادِيثَ فِي ذَمِّ الشُّحِّ، وَالْبُخْلِ كَثِيرَةٌ، وَالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء: 37]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [محمد: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرًا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾ [آل عمران: 180]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التغابن: 16] .

وَفِي الْحَدِيثِ « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ »[95]، وَفِيهِ زِيَادَةٌ وَفِي الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَالْبُخْلِ »[96]، وَقَالَ ﷺ: « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ»[97]، وَالْآثَارُ فِيهِ كَثِيرَةٌ .

فَإِنْ قُلْت: وَمَا حَقِيقَةُ الْبُخْلِ الْمَذْمُومِ؟ وَمَا حد البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حد البذل الذي يستحق العبد به صفة السخاوة وثوابها؟

قلتُ: السخاء هو أن يؤدي ما أوجب الله عليه، والواجب واجبان: واجب الشرع، وهو ما فرضه الله تعالى من الزكاة والنفقات لمن يجب عليه إنفاقه وغير ذلك، وواجب المروءة، والعادة .

والسخي: هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحدا منهما فهو بخيل، لكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، فمن أعطى زكاة ماله مثلا ونفقة عياله بطيبة نفسه، ولا يتيمم الخبيث من ماله في حق الله، فهو سخي . والسخاء في المروءة أن يترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح ويختلف استقباحه باختلاف الأحوال، والأشخاص .

وقد أدب الله عباده أحسن الآداب فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: 67]، فخيار الأمور أوسطها، وخلاصته: أنه إذا وجد العبد المال أنفقه في وجوه المعروف بالتي هي أحسن، ويكون بما عند الله أوثق منه بما هو لديه، وإن لم يكن لديه مال لزم القناعة والتكفف وعدم الطمع[98] .

الاعتقاد بأن المال مال الله: ومن الدوافع العقدية للعطاء أن المسلم يعتقد أن المال الذي يملكه ليس ماله هو، بل هو مال الله جعله مستخلفاً فيه ليبلوه أينفقه أم يمسكه، وقد تواترت النصوص الشرعية في تقرير هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم

مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

وجاءت آية أخرى لتثبت أن المؤمنين بالله قد عاقدوه فأعطوه أموالهم وأنفسهم، وأعطاهم بدلها الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

فالموحد لله يرى أنه ليس ملك نفسه، بل هو عبدُ لله، وكل ما يقدمه من عطاء ومن نفع فهو مما يأمره به سيده وخالقه، على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب.

وهذا هو الذي سهّل على المؤمنين إنفاق المال والجهد والوقت في سبيل الله سبحانه وتعالى، وهو كما نرى دافع عقدي صرف.

الرغبة في نيل محبة الله من خلال الإحسان: لا شك أن العطاء والاشتغال بنفع الآخرين من الأمور التي يحبها الله سبحانه ويرضاها. قال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 128]، وقال عز من قائل: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: 195].

وقال عليه الصلاة والسلام: « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال ﷺ: أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عزّوجلّ سرور تُدخِله على مسلم، أو تكشف عنه كُربة، أو تقضي عنه دَيْنًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخي في حاجة أحب إلي من أن اعتكف في هذا المسجد (يعني المسجد النبوي) شهرًا، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يثبتها له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام، وإن سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل »[99].

حسن الظن بالله: وحسن ظن المؤمن بالله عزّوجلّ يجعله يعطي العطاء الجزيل منتظراً من الله سبحانه الفرج والعاقبة الحميدة.

فهو ينتظر من الله أن يخلف له ما أنفق ويعوضه عما ذهب من ماله في الصدقة، قال جلّ شانه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: 39]، أي: يعطي خلفه، قال سعيد بن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه، وقال الكلبي: ما تصدقتم من صدقة وأنفقتم في الخير من نفقة فهو يخلفه على المنفق، إما أن يعجله في الدنيا وإما أن يدخره له في الآخرة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، خير من يعطي ويرزق.

وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى قال: أَنْفِقْ أُنْفِق عليك »[100]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنْفِقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط مُمْسِكًا تَلَفًا »[101]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[102].

وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: 17].

وهو ينتظر من الله المغفرة والجزاء الحسن في الآخرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: 18]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262].

وليس العطاء مقتصراً على المال، بل إن عطاء الكلمة الطيبة يكون خيراً من بعض النفقة، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263]، وقال عليه الصلاة والسلام: « اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة »[103].

الخوف من يوم القيامة: وقد تكرر في القرآن الكريم ربط الإنفاق مع التخويف من هول يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: 254]، وقال سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 8، 9].

من صور العطاء في المجتمع النبوي:

إن النبي ﷺ والجيل الذي عاش في صحبته أعظم مثال يمكن أن نقتدي به في البذل والعطاء، والتطوع والعمل لصالح النفع العام، وسوف نذكر بعض الصور دون استقصاء لجميع المواقف.

المشاركة التطوعية الجماعية: من المواطن التي شارك فيها النبي ﷺ وأصحابه فيها، بناء المسجد النبوي الشريف، فقد كان رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة يصلي حيث أدركته الصلاة، وكان رجال من المسلمين يقيمون الصلاة في مبرك ناقة النبي ﷺ عند بيت أبي أيوب الأنصاري، وكانت الأرض لسهل وسهيل، وهما غلامان يتيمان من بني النجار، وفيها نخل لهما، كما كانت فيها بعض قبور المشركين، وقد اشتراها النبي ﷺ، وتولى المسلمون تسويتها وقطع نخيلها ونقل قبورها وحجارتها، فجعلوا صخورها وجذوع نخلها في قبلة المسجد. وقد ساهم النبي ﷺ مع المسلمين من المهاجرين والأنصار في المدينة في بناء المسجد، وكانوا في حالة من السعادة الغامرة والسرور العظيم، وهم يهزجون:

اللهمّ إنّه لا خير إلّا خير الآخرة ❁ فانصر الأنصار والمهاجرة

وكان النبي ﷺ يقدم في العمل من يجيده، وأورد البخاري قوله ﷺ: « قرّبوا اليمامي من الطّين، فإنّه أحسنكم له مسًّا، وأشدّكم له سبكًا »[104]، وفي رواية صحيحة أخرى: « دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم ».

وكان عمار بن ياسر من العاملين المجيدين في بناء مسجد النبي ﷺ، ففي حين كان كل واحد من الصحابة يحمل لبنة واحدة في كل مرة، كان عمار يحمل لبنتين واحدة عنه وأخرى عن الرسول ﷺ، فأكرمه النبي ﷺ بأن مسح على ظهره مبرّكًا وقال له: « للناس أجرٌ، ولك أجران، وتقتلك الفئة الباغية »[105].

وقد تم بناء المسجد أول الأمر بالجريد، واستغرق بناؤه إثنى عشر يومًا[106].

ومن المواقف التي شهدت مشاركة مجتمعية في العهد النبوي: قصة حفر الخندق تولى المسلمون مهمة حفر الخندق، ورغم طوله الذي بلغ خمسة آلاف ذراع، بعرض تسعة أذرع وعمق سبعة إلى عشرة أذرع. وكان ذلك رغم برودة الجو، وقلة التموين التي تسببت في مجاعة أصابت المدينة، وقد تم إنجاز الحفر بسرعة مذهلة، لم تتجاوز ستة أيام[107]، وكانت المشاركة من الجميع، رغم قلة الزاد وإنهاك الأجساد وثقل المهمة.

ومن صور البذل في المجتمع النبوي: الوقف، وهو حبس أصل من أصول الأموال وتسبيل غلته ومنفعته، وهو داخلٌ تحت عموم الآيات التي دلت على الطاعات والخير، والندب إلى البر، ولذلك يعتبره العلماء رحمهم الله من التعاون على البر والتقوى الذي أمر الله عزّ وجلّ به في كتابه بقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2].

وقد وقع الوقف من أصحاب النبي ﷺ كما ذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجاء كذلك عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه أوقف بئر رومة، فلما فعل ذلك أقره النبي ﷺ، بل ندب إلى ذلك، وقال: من يشتريها وله الجنة، فاشتراها عثمان رضي الله عنه وأرضاه وجعلها صدقة على المسلمين.

وكذلك أيضاً أوقف الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه على ذرِّيته، وكانت له أموال كثيرة، وقال جابر رضي الله عنه وأرضاه كما في الرواية عنه: « ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ذو مقدِرة إلا أوقف في سبيل الخير ».

ومن المواقف التي ظهر فيها البذلُ والعطاء، موقف تجهيز جيش العسرة، فلقد دعا النبي ﷺ الصحابة إلى الإنفاق على هذه الغزوة نظرا لكثرة المشاركين فيها، وبعد المسافة التي كان على الجيش أن يقطعها، ووعد المنفقين بعظيم الأجر من الله سبحانه وتعالى، فسارع أغلب الصحابة إلى المشاركة في توفير الأموال المطلوبة كل حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين على جيش العسرة؛ استجابة لقول النبي ﷺ: « من جهّز جيش العسرة فله الجنّة »[108]، وتواترت الأخبار الصحيحة بأن عثمان بن عفان قد تحمل نفقات جيش العسرة، فلقد سارع بتقديم ألف دينار في بداية الاستعدادات وضعها في حجر النبي ﷺ، كما قدم أموالًا أخرى تتمثل في الجمال والعُدد التي يحتاج إليها في نقل الجيش والحرب.

وساهم عبد الرحمن بن عوف في تحمل قسط من نفقات الجيش حين قدم نصف أمواله حينذاك، وبلغت مساهمته في حدود ألفي درهم.

كما قدم عمر بن الخطاب مائة أوقية، ولا شك في أن عددا آخر من الصحابة قد ساهموا في تغطية بقية النفقات كل على قدر طاقته، والدليل على ذلك أن فقراء المسلمين قدموا ما قدروا عليه من النفقة، رغم بساطته وقلته، على استحياء منهم فقد جاء أحدهم بصاع من تمر، وجاء آخر بنصف صاع منه، مما عرضهم لسخرية ولمز المنافقين، فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 79].

ولا شك في أن المنافقين كانوا يتهمون أغنياء المسلمين بالرياء، في نفس الوقت الذي يسخرون فيه من صدقة الفقراء(109)، وهنا يظهر التضاد بين موقف المؤمنين الذين هذبتهم عقيدة التوحيد وأخرجتهم من حظوظ أنفسهم، وموقف المنافقين الذين لم يقدموا فينفعوا، ولم يصمتوا فيكفوا أذاهم عن المسلمين الباذلين، فشتان مابين التوحيد والنفاق.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، على ما أنعم به من تمام هذا البحث، والذي أفادني كثيراً في نفسي خاصة، فالتوحيد مدرسة لا تنضب ولا تنقضي آثاره وفوائده...

وبعد هذه الجولة الماتعة في رياض التوحيد، أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها بتوفيق الله تعالى، ومن ثم التوصيات:

1 - أن التوحيد هو أصل الأصول، ولأجله خلق الله الجن والإنس، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وهو أساس هذا الدين، والميثاق الذي أخذه الله على الناس أجمعين، وبدون التوحيد لا يقبل الله العمل.

2 - أن عقيدة التوحيد، بما تورثه في قلب الإنسان من استحضار لعظمة الله وقدرته، أكبر رادع للإنسان عن العدوان، وأعظم صارف له عن التعدي والطغيان.

3 - التوحيد يحرر الإنسان من عبودية العباد والخضوع لغير الله ويسمو به للخضوع للواحد الأحد، ويمنحه الاستقلال والحرية، فالموحد لله لا تتوزع طاقاته، ولا تتبدد جهوده ومشاعره بين آلهة شتى.

وأما المشرك فعنده استعداد داخلي للخضوع للقوى الوهمية، فهو دائمًا في تمزّق داخلي وعدم استقرار وطمأنينة؛ لدينونته لآلهة متعددة، ولهذا تجد الموحد يشعر بالراحة النفسية والسعادة القلبية والاستقرار الاجتماعي والإبداع.

4 - إن عقيدة التوحيد تجعل المجتمع متحابًّا، أفراده كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وينطلق من عقيدة التوحيد الصحيحة الأصيلة، وما يندرج تحتها من مبادئ وقيم تضبط الفكر ورؤية الكون والحياة، في ضوء العبودية الخالصة لله عزّ وجلّ، وما ينجم عنها من آثار إيجابية تنعكس على سلوك الفرد وسلامة الأمة، إلى جانب نظم الإسلام الشرعية وأخلاقياته السامية التي عنت بالأخوة ووحدة الأمة غاية العناية.

5 - سبق الإسلام كل فكر متقدم في معالجة قضايا التنمية، وان لم يكن مصطلح التنمية موجود بلفظه، فقد وجد بألفاظ عديدة مترادفة، في كثير من نصوصه القرآنية والسنة النبوية وكتابات علمائه.

6 - يعتبر العمل في الإسلام العنصر الفعال في كل طرق الكسب، وهو يمثل النشاط الدائب والحركة المستمرة في سبيل رفع مستوى المعيشة، وقد أولاه الإسلام عناية فائقة، وحفز الناس إليه، وأثنى على الماهرين، وندب إلى اختيار المُتقنين، وحذر القادرين على ألا يركنوا إلى الكسل والبطالة.

7 - إن عقيدة التوحيد تعرّف الإنسان بمدى ما يملك من طاقة وقوة، فتغرس فيه روح التوكل على الله سبحانه وتعالى، وهي روح تحفزه على اتخاذ كل الأسباب المادية المؤدية للنجاح، مع استحضار المعية الإلهية واستمداد العون من الله عزّ وجلّ.

8 - من خلال أدلة الكتاب والسنة نجد أن طلب العمل جاء عاماً مطلقاً غير مقصور على عمل معين، وغير مقيد بشيء سوى الحل الشرعي، وعلى هذا فإنه يشمل جميع الأنشطة الاقتصادية، ومختلف أنواع المعاملات والمكاسب.

9 - حظيت الحرف وأصحابها بعناية الرسول ﷺ، فقد فصل في فضائلها، والتقى بأربابها، فدعا لهم وأرشدهم، وكان يستشهد بهم في حديثه، فيشبه بعض الأعمال الصالحات وأضدادها من الأعمال السيئة بحرف معروفة، كحامل المسك ونافخ الكير، وكان يتكلم مع كل صاحب حرفة بما يتعلق بحرفته، ويقول له ما يزيده بها اغتباطاً، وبآدابها وأحكامها ارتباطاً.

10 - إن نظرة الإسلام التي تعد العمل عبادة دافع قوي يدفع الإنسان إلى الإتقان في عمله والإخلاص فيه، ويعد مقصراً إذا تقاعس أو لم يؤد واجبه على الوجه المطلوب.

11 - أن أحسن عمل هو ما كان خالصاً لله تعالى وموافقاً لما جاء به النبي ﷺ.

12 - أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل من أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق، ونحن مأمورون بأن نمارس عبودية الأخذ بالأسباب، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل.

13 - أن عقيدة التوحيد تؤسس في الإنسان أركان الشخصية العاملة المتقنة؛ لأنها شخصية قوية بقوة التوحيد، أصلها ثابت وجذورها عميقة. وتثمر أعمالاً متقنة ولابد أن تتحلى هذه الشخصية الموحدة بصفات تؤهلها للعمل والإتقان فيه ومنها: القوة، الأمانة، التوكل، الصبر النشاط والجلَد التدريب والتأهيل، حسن الصلة بالله الالتزام بالضوابط الشرعية، عدم الانهيار حين تخيب النتائج.

14 - إن الموحد الذي يقرأ النصوص المتواترة التي تربط العطاء بالإيمان، وبالفلاح في الآخرة، ويقرأ النصوص الأخرى التي تربط الخسران يوم القيامة بالإمساك عن البذل والإحجام عن العطاء، سيجد نفسه مندفعا نحو العطاء ليحافظ على إيمانه، وليكون ممن وقاهم الله شح أنفسهم.

15 - عنيت عقيدة التوحيد ببناء الصدر الأول، جيل التلقّي، والحملة الأُول لرسالة الإسلام، وفقاً لهذه المنظومة المتلازمة التي استطاعت أن توجد ذلك الجيل المتّبع دون تقليد، والمبدع دون تجاوز، والمجتهد دون افتآت، والمجدد دون تهوّر أو تبديد؛ فكان جيلاً مثالياً نموذجيًّا.

قائمة المصادر والمراجع:

- الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية لمحمود أحمد شوق، الناشر: دار الفكر العربي، عام النشر: 1421هـ - 2001م.

- اتجاهات حديثة في التنمية، عبدالقادر محمد عبدالقادر، الاسكندرية، الدار الجامعية، ط1999م .
- إحياء علوم الدين، للغزالي، الناشر: دار المعرفة - بيروت .
- الإسلام وضرورات الحياة، محمد قادري، الناشر: دار المجمع للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية .
- أصول الدعوة، المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، الناشر: جامعة المدينة العالمية .
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق: طه عبدالرؤوف، بيروت، دار الجيل، ط1973م .
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م .
- التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، المؤلف: علي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث .
- تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984هـ.
- تفسير الثعالبي، للثعالبي، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م .
- تفسير المنار لرشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م .
- تقريب التدمرية لابن عثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الطبعة: الطبعة الأولى، 1419هـ.
- تلبيس إبليس، لابن الجوزي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2001م .
- التنمية من منظور اسلامي، سائد أبو بهاء، بحث منشور على موقع الألوكة .
- التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، د.عبدالله الدميجي، دار الوطن، الطبعة الأولى 1417هـ.
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبدالله، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة: الأولى، 1423هـ/ 2002م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، تحقيق: الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2001م .
- جامع العلوم والحكم، لابن رجب، المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م .
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: 1423هـ/ 2003م .
- الجهاد والقتال، للدكتور: محمد خير هيكل، الناشر: دار ابن حزم .

- الحث على التجارة والرد على من يدعي التوكل، الناشر: دار العاصمة، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، 1407هـ
- حصيلة الزكاة وتنمية المجتمع، فؤاد عبدالله العمر، دراسة حالة واقعية عن الكويت، موارد الدولة المالية في المجتمع الحديث من وجهة النظر الإسلامية، جدة، البنك الإسلامي للتنمية، للمعهد الإسلامي للبحوث والتدريب 1408 - 1409هـ.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م.
- خصائص التشريع الإسلامي، للدكتور: فتحي الدريني
- خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.
- روح المعاني، للآلوسي، المحقق: علي عبدالباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.
- رؤية الملك عبدالعزيز للأمن الاجتماعي في المجتمع السعودي محمد إبراهيم السيق، مجلة الأمن، الرياض، العدد السابع عشر، ذو القعدة 1419هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ/ 1994م.
- سبل السلام، للصنعاني، الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة: الرابعة 1379هـ/ 1960م.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.
- سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار الفكر - بيروت.
- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، الناشر: دار الفكر.
- السنن الإلهية في الأمم والأفراد، د. مجدي محمد عاشور، دار السلام، القاهرة، الطبعة الثانية، 1422هـ.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبدالباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة: الثانية، 1395هـ - 1975م.
- السنن الكبرى، للبيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الطبعة: الأولى . 1344هـ.
- سنن النسائي، لأحمد بن شعيب النسائي، الناشر: دار المعرفة ببيروت، الطبعة: الخامسة1420هـ.
- شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، 1410.
- الصحاح، للجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة 1987م
- صحيح ابن حبان لأبي حاتم محمد بن حبان البستي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثانية، 1414 - 1993.

- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري، الناشر: دار الشعب - القاهرة، الطبعة: الأولى، 1407 - 1987 .
- صحيح الجامع الصغير، للألباني، الناشر: المكتب الإسلامي .
- صحيح سنن ابن ماجه، للألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ .
- صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج، لناشر: دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت .
- عبقرية محمد، عباس محمود العقاد .
- العقيدة الإسلامية: دراسة الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية عن دار بريل في لايدن (ايسيسكو)، علي محي الدين القرة داغي، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم .
- العمل في الإسلام، لعز الدين التميمي
- فتح الباري، لابن حجر، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379 .
- الفوائد، لابن القيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، 1393هـ - 1973م .
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - 1412هـ.
- الكشاف، للزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق مهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/ 1995م .
- المحرر الوجيز، لابن عطية، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422هـ.
- مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، تحقيق: علي حسن عبدالحميد، الناشر: دار عمار، الطبعة الثانية، 1415هـ.
- مدارج السالكين، لابن القيم، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1416هـ - 1996م .
- مراجعات الفكر والدعوة والحركة، لعمر عبيد حسنة .
- مسند أبي يعلى، لأبي يعلى الموصلي، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة: الأولى، 1404 - 1984 .
- مسند الإمام أحمد، لأحمد بن حنبل، المحقق: السيد أبو المعاطي النوري، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ . 1998م .
- مسند الطيالسي، لأبي داود الطيالسي، الناشر: دار المعرفة - بيروت .
- مصنف ابن أبي شيبة، لابن أبي شيبة، ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام، الإشراف الفني والمراجعة والتصحيح: مكتب الدراسات، والبحوث في دار الفكر دار الفكر .

- المعجم الأوسط، للطبراني، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.
- مفاتيح الغيب، تفسير الفخر الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420هـ.
- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط1406هـ.
- المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، تحقيق: حلمي محمد فودة، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى: 1399هـ.
- الموافقات، للشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ: صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.
- الوحي والإنسان قراءة معرفية، محمد السيد الجليند، دار قباء، القاهرة، 2002م.

الهوامش:

(1) مدارج السالكين 3/468- 469.

(2) مجموع الفتاوى 25/15.

(3) العقيدة الإسلامية: دراسة الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية عن دار بريل في لايدن (ايسيسكو)، علي محي الدين القرة داغي ص97، 98، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.

(4) رواه أبو داود في سننه برقم (5105)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبو داود برقم (4258).

(5) رسل الله، مجمع عظمات البشرية، مصطفى الزرقاء، عظمة محمد حاتم ص38.

(6) عبقرية محمد، عباس محمود العقاد ص 12- 13.

(7) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية ص 290.

(8) الوحي والإنسان قراءة معرفية ص 178- 179.

(9) الوحي والإنسان قراءة معرفية ص 146- 147 باختصار.

(10) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (7520)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (2626)، وضعيف الجامع برقم (5485).

(11) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (2320)، ومسلم في صحيحه برقم (1552).

(12) التنمية من منظور اسلامي، سائد أبو بهاء

(13) اتجاهات حديثة في التنمية، عبدالقادر محمد عبد القادر ص17.

(14) حصيلة الزكاة وتنمية المجتمع، فؤاد عبد الله العمر ص335، دراسة حالة واقعية عن الكويت، موارد الدولة المالية في المجتمع الحديث من وجهة النظر الإسلامية، جدة، البنك الإسلامي للتنمية، للمعهد الإسلامي للبحوث والتدريب 1408- 1409هـ.

(15) اتجاهات حديثة في التنمية، عبدالقادر محمد عبد القادر، ص52.
(16) رؤية الملك عبد العزيز للأمن الاجتماعي في المجتمع السعودي، محمد إبراهيم السيق ص196، مجلة الأمن، الرياض، العدد السابع عشر، ذو القعدة 1419هـ.
(17) خصائص التشريع الإسلامي، للدكتور: فتحي الدريني ص159.
(18) تقريب التدمرية ص 11.
(19) مدارج السالكين 500/3.
(20) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري 32/10.
(21) روح المعاني 24/10.
(22) تفسير الميزان، للطباطبائي 116/9.
(23) الكراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.
(24) جامع البيان، للطبري 33/10.
(25) الكشاف، للزمخشري 343/1.
(26) تفسير التحرير والتنوير 212/2.
(27) الحديث أخرجه أبو داود في سننه 12/3، والترمذي في سننه 212/5، والنسائي في السنن الكبرى 299/6، وابن حبان في صحيحه 9/11، والطيالسي في مسنده ص81، والحاكم في المستدرك 94/2، والبيهقي في السنن الكبرى 45/9. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.
(28) تفسير القرآن العظيم 218/1.
(29) تفسير المنار 213/2.
(30) مراجعات الفكر والدعوة والحركة، لعمر عبيد حسنة ص17.
(31) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 189/4.
(32) انظر: الموافقات، للشاطبي 190/1.
(33) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 419/1.
(34) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية 12/4، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 95/11.
(35) روح المعاني 85/16.
(36) رواه البخاري في صحيحه برقم (2263).
(37) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 95/11- 96، وانظر: روح المعاني، للآلوسي 85/16.
(38) رواه أحمد في مسنده 50/2، 92، وابن أبي شيبة في المصنف 313/5، وذكره البخاري معلقاً في صحيحه، كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح 115/6، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 49/6، وقال: « فيه عبدالرحمن بن ثابت، وثقه ابن المديني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات »، قال ابن حجر في

فتح الباري 116/6: « له شاهد مرسل بإسناد حسن، أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي، عن سعيد بن جبلة »، ورواه البيهقي في شعب الإيمان 7/2.

(39) المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي 7/2.

(40) رواه الترمذي في سننه برقم (537)، وابن حبان في صحيحه برقم (2549)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (1210، 1212)، قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء: « رواه ابن خزيمة والطبراني من حديث أمية الضمري بإسناد جيد»، وحسنه الألباني في تخريجه أحاديث مشكلة الفقر برقم (22).

(41) رواه البخاري في صحيحه برقم (2072)، وابن ماجه في سننه برقم (2138)، وأحمد في مسنده 130/4، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (1224).

(42) فتح الباري 358/4.

(43) رواه الترمذي في سننه برقم (2344)، وحسنه، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم (4164).

(44) جامع العلوم والحكم ص 409.

(45) المنهاج، للحليمي 9/2.

(46) شعب الإيمان 66/2، 67.

(47) رواه في سننه برقم (3610)، والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في التحفة 213/8، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (1213)، وفي السنن الكبرى 181/10. والحديث ضعفه النووي في الأذكار، كما في التيسير ص504، وقال المنذري: في إسناده بقية بن الوليد، وفيه مقال. وضعفه الألباني في الكلم الطيب ص79، والفهيد في النهج ص 192.

(48) شعب الإيمان برقم (1214).

(49) انظر: زاد المعاد 364/2، مجموع الفتاوى 31/10.

(50) انظر: تاريخ بغداد 160/10، شعب الإيمان للبيهقي برقم (1266).

(51) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم 286/2، روضة العقلاء، لابن حبان ص201، شعب الإيمان للبيهقي برقم (1261).

(52) شعب الإيمان، للبيهقي برقم (1259).

(53) الحث على التجارة والرد على من يدعي التوكل ص27 ح(4)، وانظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، د.عبدالإله الأحمدي 234/2.

(54) مسائل صالح ص72، وانظر: المسائل والرسائل 238/2.

(55) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص281.

(56) تيسير العزيز الحميد ص 502.

(57) الفوائد ص 80.

(58) مدارج السالكين 501/3.

(59) رواه مسلم في صحيحه برقم (2664).

(60) مدارج السالكين 501/3.

(61) التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب، د.عبدالله الدميجي ص 177- 192، باختصار.
(62) شعب الإيمان، للبيهقي 79/2.
(63) فتح الباري، لابن حجر 120/9.
(64) إحياء علوم الدين 266/4، والفتاوى الكبرى، لابن تيمية 359/1، ومدارج السالكين، لابن القيم 114/1، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي 107/8، 108، وفتح الباري، لابن حجر 409/11، وتفسير المنار، لرشيد رضا 207/4، 208، وفي ظلال القرآن، لسيد قطب 498/1، 117/9، 218/11- 219، والجهاد والقتال، للدكتور: محمد خير هيكل 1576/3- 1586.
(65) روح المعاني، للآلوسي 19/13.
(66) تفسير التحرير والتنوير 21/13.
(67) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4949)، ومسلم في صحيحه برقم (2647)، عن علي رضي الله عنه.
(68) تفسير الثعالبي 247/2 نقلاً عن ابن أبي جمرة.
(69) تفسير المنار، لرشد رضا 214/4، وكتاب الهجرة بين السنن الجارية والسنن الخارقة، للدكتور: طه الدسوقي ص325- 236.
(70) أخرجه أحمد في مسنده برقم (9722)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (783).
(71) وذلك في حديث أخرجه أبو داود في سننه 20/4، والترمذي في سننه 266/4، وأبو يعلى في مسنده 354/3، وعبد بن حميد في مسنده ص329، وابن أبي شيبة في مصنفه 141/5، وابن حبان في صحيحه 488/13، والحاكم في المستدرك 152/4 كلهم عن جابر بن عبدالله. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(72) فتح الباري، لابن حجر 160/10- 161.
(73) أخرج هذا الأثر الحكيم الترمذي في نوادر الأصول 405/1، والبيهقي في شعب الإيمان 81/2.
(74) السنن الإلهية في الأمم والأفراد 208 - 219 بتصرف.
(75) رواه أحمد في مسنده برقم (17972)، وصححه شعيب الأرنؤوط.
(76) رواه البخاري في صحيحه برقم (1427).
(77) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية ص 251.
(78) انظر: المرجع السابق ص 269.
(79) انظر: المرجع السابق ص 273.
(80) رواه البخاري في صحيحه برقم (2319).
(81) أخرجه الطبراني في الكبير برقم (13507)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (6714).
(82) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم (7894)، وصححه، وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5254).
(83) رواه مسلم في صحيحه برقم (223).
(84) رواه البخاري في صحيحه برقم (2893).
(85) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (2236)، ومسلم في صحيحه برقم (1581).

(86) أخرجه أحمد في مسنده برقم (3672)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (1625).
(87) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (101)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(88) أخرجه الترمذي في سننه برقم (614)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (4519).
(89) رواه أحمد في مسنده برقم (12981)، وصحح إسناده على شرط مسلم محققه شعيب الأرنؤوط.
(90) رواه مسلم في صحيحه برقم (2664).
(91) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (30359)، والطبراني في الكبير برقم (751)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5505).
(92) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (2358).
(93) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (6019)، ومسلم في صحيحه برقم (48).
(94) رواه مسلم في صحيحه برقم (2578).
(95) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (5452)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (1802).
(96) رواه البخاري في صحيحه برقم (2893).
(97) رواه أبو داود في سننه برقم (2511)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (560).
(98) سبل السلام 569/2.
(99) أخرجه الطبراني في الصغير برقم (861)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (906).
(100) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4684)، ومسلم في صحيحه برقم (993).
(101) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (1442)، ومسلم في صحيحه برقم (1010).
(102) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2588). وانظر: تفسير البغوي 403/6.
(103) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه برقم (6023)، ومسلم في صحيحه برقم (1016).
(104) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (1122).
(105) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه برقم (20426).
(106) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم 1/ 263.
(107) انظر: نضرة النعيم 325/1.
(108) رواه البخاري في صحيحه برقم (2778).
(109) نضرة النعيم 1/ 387.